مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

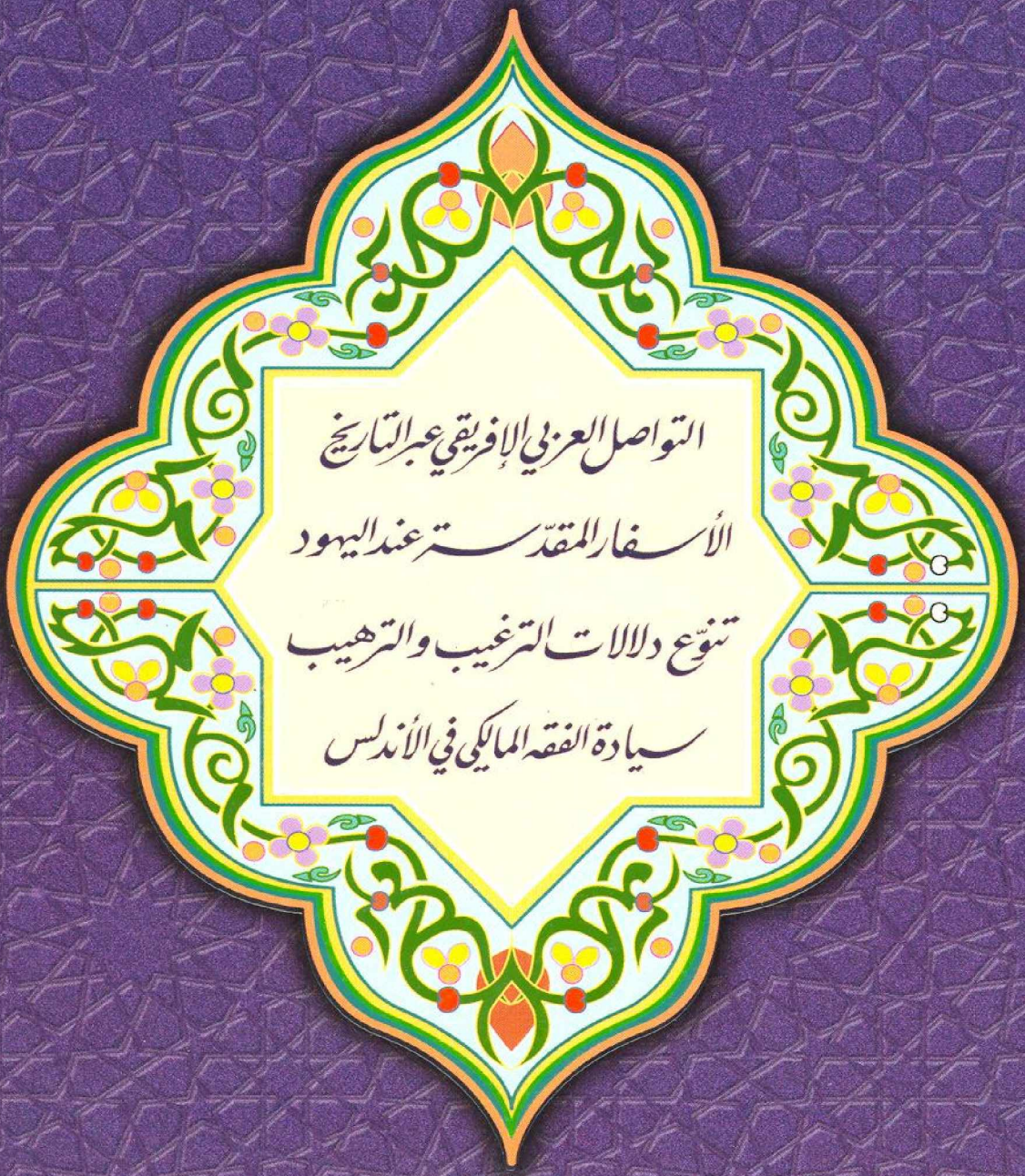

تمهيد: الأسلوب الأدبي والنفس الإنسانية

يختلف التعبير الأدبي عن التعبير العلمي أو المباشر في أوجه كثيرة لعل أبرزها يتعلق بالأثر النفسي الذي يحدثه التعبير الأدبي في النفس الإنسانية، فبينما يكون هذا الأثر هو الغاية الأساسية في التعبير الأدبي، يكون الإفهام وتوصيل المعنى هو المقصود من التعبير العلمي أو المباشر.

وتختلف الأساليب الأدبية في قدرتها على إحداث التأثير المرجو في النفس الإنسانية بناءً على الأدوات الفنية التي يستخدمها الأديب، وهي أدوات كثيرة ومتنوعة، وربما كان التصوير أو الخيال عموماً أكثرها قدرة على استجابة

المتلقي وانفعاله بالأثر الأدبي. ولقد أكد الفلاسفة وعلماء النفس أن الإنسان لديه استعداد وميل إلى التأثر بالخيال بدرجة ربما تفوق تأثره بالحقيقة أو الواقع. يقول ابن سينا: (إن الكلام المخيّل تذعن له النفس فتنبسط عن أمور من غير رويّة وفكر واختبار. وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانياً)[1]. وهو بهذا يشير إلى التعامل العاطفي غير العقلي مع الأثر الأدبي أو (الكلام المخيّل)، فيستجيب له أو يتأثر به (من غير رويّة وفكر واختبار). كما ذهب الفارابي إلى (أن الإنسان كثيراً ما تتبعُ أفعالُهُ تخيلاته أكثر مما تتبعُ ظنه أو علمه)[2].

وهذا يدلنا على قوة التأثير الأدبي في النفس الإنسانية، لأن الإنسان (لا يقف من المنبهات والإحساسات التي تتضمنها الصورة الشعرية أو الظروف الخارجية موقف اللوح الفوتغرافي من الأشعة التي تؤثر فيه، ولكنه ـ كما يقرر علم النفس الحديث، يتناولها بالتأويل، ويفرغ عليها من عنده، ما يحيلها إلى أشياء ذات معنى)[3]. فهناك إرسال واستقبال، وهناك منبهات ومدركات تتجاوب معها النفس وتنفعل بها على اختلاف درجات هذا التجاوب والانفعال. ومن المعلوم أن الشيء المدرك غير الشيء المتخيل، وإن كان موضوعهما واحداً، فالشيء المدرك قد تنفعل به النفس وقد لا تنفعل، ولكنها مع الشيء المتخيل تذهب كل مذهب في التصور والتأويل[4].

والمتتبع لتطور الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث في مجال الصورة يجد أنماطاً متعددة من الصور تبعاً لمؤثرات عديدة مرّ بها هذا الأدب، كما يقف عند حالات كثيرة من النجاح الذي يرافق الأدباء في إحداث

---

(1) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، د. تامر سلوم، دار الحوار، دمشق ط1، 1983، ص187، والمصادر التي أحال إليها.

(2) نفسه، ص186.

(3) أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، المكتب المصري، القاهرة، ط10، 1976، ص172، وينظر الأسس النفسية للبلاغة العربية، د. مجيد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص153.

(4) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ط، 1404هـ، 1984م، ص73.

الأثر المرجو في نفوس الناس، كما يجد حالات أخرى من الإخفاق والفشل في إحداث هذا الأثر[5].

ولا نريد أن نستطرد في الحديث عن الصورة الفنية في الأدب البشري، فهذا له مجاله الخاص، وإنما أردنا أن نمهد بهذا الحديث لطابع التصوير في الأدب الإلهي وصلته بالنفس الإنسانية.

الصورة القرآنية والنفس الإنسانية:

لقد خلق الله سبحانه النفس البشرية وهو عالم بأسرارها وحقائقها وميولها، وهو عالم، كذلك، بالمؤثرات التي تؤثر فيها، وبالمنبهات التي تهزها، فهو عالم بما توسوس به، وهو أقرب إليه من حبل الوريد[6]. قد يعلم علماء النفس الشيء الكثير عن هذه النفس، وقد نعلم نحن أكثر منهم في أنفسنا، ولكن من قال إنه أحاط علماً كاملاً بما يستثير هذه النفس فيغضبها أو يحزنها أو يسرها؟ ومن قال إنه عرف ثوابتها، ومتغيراتها وقوانينها كلها؟ لم يقل أحد بهذا حتى هذا الوقت، ولن يقوله أحد في المستقبل مهما طال مداه. والله الخالق البارىء المصور هو وحده العالم بأسرار هذا الكائن الذي جبله بيده وصوره فأحسن صورته وركّب أجزاءه واختص بأسراره الروحية والنفسية..

من هذا المنطلق الذي لا نختلف حوله، سيكون التأكيد واضحاً على أن للصورة القرآنية أثرها النفسيّ البارز، لأنها صيغت لتخاطب النفس، وتوجهها إلى الأهداف التربوية والعمرانية التي ندبها ربها إلى القيام بها في مرحلتها الأرضية المحدودة، مرحلة الاستخلاف التي شرف بها الله هذا الكائن الكريم، الإنسان.

---

(5) كما حدث مع الشاعر ذي الرمة في مطلع قصيدته التي مدح بها هشام بن عبد الملك، ينظر: التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط4، د.ت، ص84، وكتابنا أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1987، ص145.

(6) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. وينظر كتابنا (الإعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً، دار المرتضى، بيروت، ط1، 1413هـ، 1993م، فصل (القرآن والنفس الإنسانية) ص137.

وبسبب من هذا فنحن نهتز للتعبير القرآني وننفعل به، ونستجيب له، لأن فيه هدياً، ولأن فيه موعظة، ولأن فيه خطاباً موجهاً لنفوسنا بطريقته الخاصة التي لا تشبه أساليب البشر من مختلف وجوهها، ولعلَّ أبرز سمات هذه الطريقة هي طريقة التصوير وصلتها بالنفس البشرية معرفة وتوجيهاً وإثارة.

ولا نريد في هذا البحث الموجز أن نحقق في قضايا نفسية على ضوء ما توصل إليه علم النفس الحديث. فنخضع التعبير القرآني والصورة القرآنية لمقولات هذا العلم، لأن كثيراً من هذه المقولات لم يثبت للتحقيق العلمي، خاصة ما جاء به (فرويد) في مجال علم النفس التحليلي، وما كان من رفض تلاميذه مثل (أدلر) و(يونج) بعض النتائج التي تصول إليها وظن أنها حقائق نهائية[7].

إن الملحظ الهام الذي نريد أن نشير إليه في الفرق بين دراسة الكلام الإلهي والكلام البشري دراسة نفسيّة هو أن علم النفس الأدبي كثيراً ما يركز على دراسة نفسية الأديب من حيث كونها سوية أو شاذة، صحيحة أو مريضة، ومن حيث الظروف التي أحاطت بها، والمؤثرات التي أثرت فيها، وأثر ذلك كله في النص الأدبي وتشكيله. وقد يدرس هذا العلم أثر النص الأدبي في نفسية المتلقي، بينما لا نستطيع نحن في مجال تعاملنا مع النص القرآني... وهو نص تشريعي وأدبي بلا جدال ـ أن نتحدث عن (نفسية) الخالق سبحانه، إذْ لا قدرة لنا على ذلك، ولا ينبغي لنا.

فلا يبقى أمامنا ـ والحال هذه ـ إلا التأمل في مكوّنات النص القرآني وخصائصه، ثم الوقوف عند أثر هذه المكوّنات البيانية والتعبيرية في النفس الإنسانية باعتبارها المتلقية والمنفعلة، والمقصودة بهذا الخطاب الإلهي الشريف. أي إن المجالات الثلاثة التي يعمل بها النقد النفسي في تعامله مع

---

(7) يُنظر النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، د. أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1972، ص173 وما بعدها. وينظر، كذلك، كتابنا (الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي)، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1412هـ، 1992م، ص158، وما بعدها.

الأدب البشري هي (المنتج، والنص، والمتلقي)، بينما لا يكون أمام الناقد الذي يريد أن يفيد من الدراسات النفسية في مجال دراسة النص الإلهي غير مجالين هما: (النص والمتلقي). وهكذا كان مجال الدراسات البلاغية العربية القديمة في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، حيث عني علم المعاني بمقتضى الحال وهو أمر يتعلق بالدرجة الأولى بنفسية المتلقي وأحواله واستعداده للتأثر والقبول، وعني علم البيان بوضوح الدلالة، بينما عني علم البديع بوجوه تحسين الكلام وتزيينه. وكلها تدور حول هذين المحورين (النص والمتلقي). وما من شك في أن الجانب النفسي كان منظوراً إليه في كل علم من هذه العلوم، وإن لم يكن بالصورة التي توجه إليها النقد الأدبي في العصر الحديث[8].

وبشكل عام فإن هناك اتجاهين في الإفادة من نتائج علم النفس في مجال البحث الأدبي، اتجاه فيه غلو من جانب إخضاع الأثر الأدبي لهذه النتائج، وكأن هدفه البحث النفسي لذاته، وقد ضل في هذا المجال كثير من النقاد[9]. واتجاه مقتصد يحاول الانتفاع من إنجازات علم النفس بالحدود التي تفيد في فهم النص ومعرفة آثاره في النفس الإنسانية[10].

وسوف نحاول في تأملنا للصورة القرآنية أن نتخذ من نفوسنا ميداناً للتلقي والتجاوب. وقد يكون في هذا نوع من (الانطباعية)، ولكنها انطباعية تفيد من اللفتات النفسية الذاتية والموضوعية التي أشارت إليها بعض الدراسات النفسية، مبتعدين عن الدراسات النفسية التي (تحاد) القرآن وتقف في الجهة التي ترفض هديه ومصدره.

---

(8) ينظر كتاب الدكتور مجيد ناجي (الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية)، ومقال الدكتور مازن المبارك (البلاغة وتذوق النص الأدبي) في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات العربية المتحدة، ع10، 1416هـ، 1995م.

(9) من مثل كتاب (الأسس النفسية للإبداع الأدبي) للدكتور مصطفى سويف، وكتاب (التفسير النفسي للأدب) للدكتور عز الدين إسماعيل.

(10) التصوير البياني، د. محمد أبو موسى، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1398هـ، 1978م، ص85.

نماذج من الصور القرآنية

أولاً: التخويف والترعيب

سوف نجد حالات نفسية كثيرة عني القرآن بتصويرها، وأغلبها قائم على الترعيب والتخويف والألم والحسرة والخيبة والحرمان، مما يدعو المتلقي أحياناً إلى حالات من الإشفاق أو التشفي أو التألم، كما يقوم بعضها على الدهشة والمفاجأة والتعجيب، وسوف نشهد أدوات القرآن في إبراز هذه الحالات وتصويرها من مثل التشخيص والتمثيل والقصة، والتكرار، والتفصيل، والمبالغة ولا أظننا قادرين على استيفاء هذه العناصر كلها في هذا البحث وسوف نكتفي بالقليل منها فقط.

أ ـ قال الله تعالى في تصوير جانب من قصة نوح: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿41﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: 41 و42].

هناك صورة جزئية (موج كالجبال) تتحرك في لوحة نفسية واسعة تضطرب فيها العواطف البشرية متمثلة في عاطفة الأبوة الحانية المشفقة على ذلك الولد الذي لا يرعى لهذه العاطفة قيمة، ولا يبادلها الموقف، بل يتمادى في اللعب بها والتهاون بدرجة غليانها. وفي لحظة من لحظات النداء الواله الملهوف من لدن الأب يتحرك الموج العظيم ويتتابع في تحركه كأنما كل موجة منه جبل من الجبال الشامخات التي تحول بين الوالد وولده. فهل هذا الخوف الذي يبعثه الموج المتطاول كالجبال من الوالد على ولده أو من الراكبين في السفينة على أنفسهم؟! لقد التبس الأول بالثاني، وزادته رهبتنا نحن وإشفاقنا على ذلك الوالد صاحب القلب الكبير، وربما تبعه تشفّينا من الحالة التي سوف يؤول إليها الولد العاق ومن معه من الكافرين[11].

(11) ينظر الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، 1997، ص384، والمصادر التي أشار إليها.

وللقرآن دلالاته النفسية في اختيار الألفاظ التي تؤلف صوره، فهو يختار لفظة (الأعلام) في تشبيه السفن في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ [الرحمن: 24] و[الشورى: 32]، لأن العلم أو الراية مما يستخدم للزينة والتجميل، (وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظاً عند ذكر السفن الجارية فوق البحر، تزين سطحه، وكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً)[12]. بينما آثر لفظة (الجبال) في الحديث عن السفينة والأمواج التي تتلاطمها، للإيحاء إلى أن الموقف موقف رهبة وفخامة وتهويل.

ب ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31].

وهذا من عجيب التشبيهات القرآنية التي يكون فيها للتأثير النفسي قسط وافر. وقد التفت علماء البلاغة القدامى إلى عمق هذا التشبيه ولكنهم لم يفصّلوا القول في أثره النفسي. قال الزمخشري: (يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرّق، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطيرُ، فتفرق مِزَعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة. وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوّه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة)[13].

وقد صاغ الدكتور محمد أبو موسى هذا التعبير صياغة حديثة وأغناها بتعمقه في الإشارة إلى أن هذا المشرك الذي جانب الفطرة الربانية وأبطل

(12) البلاغة القرآنية بين الفن والتاريخ، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1977، ص310.

(13) الكشاف، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1367هـ، 1948م، جـ 2، ص348.

قواه النفسية والروحية التي تعرج به إلى الأفق الأسنى فكأنما سقط من سماء المعرفة الطاهرة الصادقة إلى وهاد الجهالة. فالإنسان حين يفقد معرفته بنفسه، وكونه وعدمه، ومصدر وجوده الذي يتحدد في ضوء معرفة الله، يكون قد اختار الضياع وانتهى إلى السقوط والانحدار الذي ما بعده سقوط ولا انحدار[14].

ونحن لا نستطيع أن نزيد على ما قاله الزمخشري والدكتور أبو موسى إلا أن نتمثل أو نتخيل أنفسنا مكان ذلك الرجل المشرك ـ والعياذ بالله ـ فأي قلب يقوى لنا على تخيل الصورة أو المشهد. أعتقد أنه سوف يجري لنا ما يجري لشخص ليس لديه قدرة على رؤية جريمة بشعة ـ وربما يكون طفلاً أو امرأة، لأنهما ممن لا يقدران على رؤية المشاهد المرعبة ـ إنه سوف يضع كفيه على عينيه ويصرخ هلعاً. وربما سمحنا لأنفسنا أن نتذكر حالة سقطنا فيها من مكان عالٍ، جبل، أو حائط، وكيف انخلعت قلوبنا وانفصلت عن أجسادنا، فكيف بنا ونحن نواجه هذ الصورة التي يقذف فيها إنسان بلحمه ودمه وقلبه وأعصابه من فوق السماوات وعلى أبعاد ملايين أو ملايير الكلومترات، فلا يكاد يصل منه شيء إلى الأرض البتة، إنه يشبه قطرة المطر المفردة التي تتلاشى في الجو قبل أن تصل إلى سطح الأرض، علماً أن المسافة بين السحاب والأرض قصيرة جداً بالقياس إلى ما لا يُعلم مداه من أعالي السماء!!

إننا قد نتشفى من النار الجهنمية التي يحرق بها المشرك بالله، ولكننا نشعر بشيء من الإشفاق على هذا المخلوق الذي تطوح به الرياح من أعالي السماء، وتهوي به في أماكن دون سطح الأرض، وربما تناوشته الطيور الجارحة وهو لمّا يسقط بعد في مستقره من الهاوية السحيقة.

إن هذه الصورة تستغرق كل إمكانية للتصور، ويمكن أن تلحق بموضوع من موضوعات (المبالغة) في علم البديع إلا موضوع (الغلو) الذي نُجِلّ

(14) التصوير البياني، ص99.

البيان الإلهي من أن يخوض فيه. وما من شك في أن لهذه المبالغة والإغراق شأناً من شؤون التأثير في النفس ودفعها إلى مزيد من التوسع في التصور[15].

ومن الملاحظ أن أجزاء هذه الصورة متوفرة في الوجود، وهي (الرجل والسماء والطير والريح)، ولكنها بشكلها التركيبي هذا غير موجودة، إذ إننا لم نر رجلاً سقط من السماء فتقاذفته الرياح أو تخطفته الطير. فهي إذاً من التشبيه الخيالي باصطلاح البلاغيين، ولكن ثمة فرق بين هذا التشبيه الخيالي القرآني الذي تذهب معه النفس كل مذهب من الخوف والتصور البعيد، وبين الأمثلة الصناعية التي يضربونها من كلام البشر.

انظر إلى هذا النموذج لشاعر يشبه ورد شقائق النعمان، وهي تعلو على أغصانها أو سيقانها الخضراء بأعلام من الياقوت (الأحمر) وهي تنشر على بساط من الزبرجد (الأخضر).

وكأنَّ محمرَّ الشقيق إذا تصوَّبَ أو تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشرن على بساطٍ من زبرجدْ[16]

فأية قيمة نفسية وراء هذا التشبيه الخيالي الصناعي غير الدلالة على ذكاء الشاعر وقدرته على صياغة مُركَّبٍ تصويري غير موجود في الواقع، ولكن أجزاءه من أعلام الياقوت والبساط والزبرجد موجودة في هذا الواقع؟ أما ما وراء هذا التعبير من تجربة إنسانية أو إيحاء نفسي أو شعوري، فلا شيء.

---

(15) إذا جاز لي أن أدخل نفسي مثالاً لمدى تأثير هذه الصورة، فإني أتذكر أنني عشت حلماً مرعباً موضوعه موضوع هذه الصورة، حيث رميت من الجو وفي اللحظة الأولى استيقظت صارخاً بأعلى ما أملك من صوت. وربما يكون التأثير النفسي لهذه الصورة أكثر ترعيباً إذا تخيلنا أن القوة التي تطوح بك في مجالي الجو هي نمط من الجن أو العفاريت، وربما يكون لهذا التصور شيء كامن في الضمير الجمعي البشري في عهود رعبه من هذه الكائنات.

(16) ينظر، علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1985، ص69.

جـ ـ وقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: 11 و12].

وما هذا الحيوان الهائج الغاضب الزافر الذي يتهيأ للانقضاض على فريسته وكأنه معها على ميعاد؟! و(من مكان بعيد)، إشارة إلى ضخامة هذا الحيوان، وإلى علوّ صوته حتى ليكاد يخترق المسافات البعيدة. إنه ليس حيواناً بالمنظور الطبيعي بل يكاد يكون حيواناً أسطورياً خارقاً. وفي هذا ما فيه من شدة الخوف والرعب. وإذا أضفنا إلى هذا الحيوان المفترس صفته النارية التي تحطم الأضلاع وتذيب الأجساد كان ذلك مدعاة للخوف أكثر.

وإذا توقفنا من الحديث عن الإشفاق على هذا الكائن من هول ما يرتقبه، أو التشفي منه، لأنه يستحق هذا العذاب، فإننا نريد أن نستعير مصطلحاً قديماً أثاره أرسطو في دراسته للمأساة اليونانية ألا وهو (التطهير) (Catharsis) [17]، ولا نريد أن نحمله كل ما حملته الدراسات القديمة والحديثة. سوى فكرة تطهير نفوسنا من (الفعل) الذي يؤدي إلى الوقوع في مثل هذا المشهد. أليس في هذا المشهد إنذار لنا نحن؟ أفلا تكون استجابتنا إزاءه أن نعمل على تجنب الوقوع في المقدمات التي تؤدي إلى مواجهة هذا الحيوان المفترس، أوقل هذه النار التي تلبست بصفة الحيوان؟

ومن المعلوم أن حديثنا عن مصلح (الإشفاق والرحمة) مأخوذ من معاني التطهير أيضاً، لأنه تطهير لأنفسنا من (الفعل) عن طريق تجنبه، ومن خلال الإشفاق على فاعليه في بعض الأحيان، وربما التشفي منهم في أحيان أخرى.

ويقول البلاغيون إن هذا التخويف جاء عن طريق أداة الاستعارة التي تلبس المشبه بالمشبه به حتى يكونا شيئاً واحداً، وهي أقدر على تحقيق التخييل

---

(17) ينظر في تفصيل الكلام عن نظرية التطهير عند أرسطو كتاب (النقد الحديث)، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصرة، القاهرة، ط1977، ص80 وما بعدها.

وآثاره النفسية من التشبيه، إذ فيها ما فيها من إثبات الصفة عن طريق المبالغة[18]. وهكذا ينوع القرآن في أدواته الفنية كلما أراد أن يحقق غرضاً تأثيرياً في نفس المتلقي.

إن عنصر التخويف عن طريق التشخيص نجده في قوله تعالى في الموضوع نفسه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30] وإذا كان الله، سبحانه، يرسل بالآيات في الحياة الدنيا ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]، فهو يعمد إلى هذا التخويف من أهوال ما يلقاه البشر في يوم الحساب؛ إذ لا تعد عقوبات الدنيا شيئاً بالقياس إلى عقوبات الآخرة، ومن المعلوم أن بعض النفوس المستكبرة المستعلية لا يزيدها التخويف الدنيوي إلا عتواً ونفوراً ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 60].

د ـ وقال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: 62 ـ 65].

شجرة الزقوم هذه متناهية في إثارتها للخوف والرعب، لأن أمرها عجيب، فهي تخرج من أسفل النار ومن قعرها وهو أشد مواضع النار حرارة، فما رأينا شجراً ينبت في النار، والنار تحرقه!! هذا في قوانيننا البشرية وما تواضعت عليه حواسنا، ولكن قوانين الله في اليوم الآخر شيء آخر.. ثم إن مصدر الرعب الآخر فيها أن شكل ثمرها وأعاليه من البشاعة والكراهة والشؤم بحيث لا يوجد شيء يشبهه إلا رؤوس الشياطين ومن منا رأى رأس شيطان؟!

والعرب تشبه كل شيء مكروه، قبيح المنظر بالشيطان، لاعتقادهم ـ كما يقول الزمخشري ـ أنه شر محض لا يخلطه خير[19].

---

(18) ينظر، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد ناجي، ص220 والمصادر التي أشار إليها.

(19) الكشاف، ج2، ص603.

إننا لم نر الجحيم، ولم نر الشجرة التي تنبت في قعرها، ولم نر رؤوس الشياطين كذلك. فنحن في حالة من التخيل والوهم لا حدّ لها. يقول علم النفس: (إن الخوف يتحكم في الإنسان بواسطة الخيال والوهم)[20]. وإننا لمأخوذون حقاً بهذا التصوير الذي يقصد من ورائه التأثير في النفس من خلال ترعيبها وتخويفها. فهذه النفس عصية ومتمردة ومغطية للحق (كافرة)، وربها وخالقها وحده هو الذي يعرف سبل ترويضها، بل إنه ليعرف أن من النفوس من تعاند ولا تذعن حتى لتهديد ربها هذا، وترعيبه هذا الذي اختار له هذه الصورة الغريبة.

يقول علماء البلاغة إن هذا النوع من التشبيه مادته غير مدركة بالحواس الخمس الظاهرة، ولكنه لو وجد في الواقع لأدرك بهذه الحواس ذاتها ويسمونه بالتشبيه الوهمي[21]، ويدرجونه ضمن التشبيه العقلي الذي لا يدرك بالحواس.

وحين نعود إلى طبيعة النفس الإنسانية نجد أنها تقع تحت تأثير الشيء غير المعقول أكثر من تأثرها بالشيء المعقول والحسي[22]، وهكذا كان حالنا مع الصورة القرآنية السابقة، وهكذا كان شأن النفس عندما تخوّف بما لم تره، كما هو الحال حين نخوف الطفل بـ (الغول) أو (السعلاة) أو أي حيوان خرافي أسطوري آخر.

ومن المعلوم أن الباري، سبحانه، عمد إلى هذا التصوير واستحضار صورة الشيطان المخيفة في أكثر من موضع من القرآن. فحين أراد ـ سبحانه ـ أن يبشع صورة المرابي، ويستنكر عملية الربا وجشعها وقبحها،

---

(20) أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، دار الملايين، بيروت، ط7، 1989، ص184.

(21) شرح التلخيص في علوم البلاغة، القزويني، شرحه: محمد هاشم دويدري، دار الجيل، بيروت، ط2، 1402، 1982، ص121.

(22) سيكولوجية الفقه في القرآن، د. التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1987، ص160.

قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275].

فالمرابي هنا يتخبطه الشيطان أي يضربه ويصرعه، فيمس بالجنون فلا يقوى على وقوف أو تفكير، بل يذهب عقله الذي ميّزت به إنسانيته، وما من شك في أن لهذا الاستحضار هدفه التنفيري من المراباة التي لم يشدد الله على شيء في القرآن مثلما شدّد عليها إلا حالة الشرك التي لم تصل إليها حالة من البعد عن الله.

هـ ـ وقال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266].

تتخذ الصورة القرآنية هذه المرة طابع الحكاية القصصية، فيتراءى لنا فيها البطل (صاحب المزرعة)، والأبطال الثانويون (الذرية)، والحادثة (الإعصار) والبيئة (المزرعة)، بما في عنصر الحكاية من أدوات فنية.. بداية ونهاية وقصّ ومفاجأة.. كل هذا، يمكن تمثله في هذه الآية المفردة.

إن هذه الكلمات المحدودة لتلخص حالات نفسية تعتري الكائن الإنساني وتهزه من الأعماق، فهي تصوّر حالتين من مراحل حياته، حالة غناه وزهوه بتلك الجنة التي لا تحتوي على ثمر واحد بل على أنماط متعددة (نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات)، وتمضي به السنون ليجد نفسه كبيراً عاجزاً بين صبْية صغار لا يقوون على كسب رزقهم، وفوق هذا كله أن مصدر غناه وزهوه القديمين يصيح به الفناء المفاجيء. وتشب فيه النار من داخله، وكأنها كانت كامنة في أعماق الجنة التي لم تنمُ بمباركة من الله، بل كانت أداة فتنة وخاتمة سوء[23].

(23) ينظر، التصوير البياني، ص114، وما بعدها.

إن ما بين يدي هذا الرجل يضيع ويتلاشى في أشد الأوقات التي هو في حاجة إليها، ولهذا تتداعى عناصر الندم والخيبة والخسران المبين، ويتعرض القلب الإنساني لحالات التمزق والانسحاق والانشطار[24]. ونظل نحن (النظارة) نلاحق الحدث السريع والنهاية المؤلمة المفاجأة للبطل، فتعتمل في نفوسنا شتى الانفعالات ونشعر أننا جزء من حركة الحياة والموت التي تلفنا والبطل معاً. فما حدث للبطل قد يحدث لنا إن نحن أخذنا بالمقدمات التي أخذ بها. وهذه المقدمات يُشير إليها نظم الآيات السابقة التي تتحدث عن صنفين من البشر: الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، والذين لا ينفقون، أو ينفقون رئاءً ونفاقاً!! وما من شك في أن الحكاية تشير ـ من طرفٍ ـ إلى هذا النمط الأخير الذي سينتهي ـ حتماً ـ إلى ما مثلته الآية من نهاية خاسرة خائبة مقهورة مقبوحة..

قلت إننا نجد أنفسنا أمام شتى العواطف حين نستحضر هذه الصورة في أذهاننا، أو نراها ممثلة على خشبة المسرح أمامنا.. فقد نشعر بشعور الإشفاق على هذا الكائن الذي لم يُعِدّ للمآل ما أعدَّ للبداية، ولم يربط وجوده الآدمي بالربوبية الموجدة. ومن المعلوم أن عاطفة الشفقة التي تحدث عنها أرسطو هي عاطفة الإنسان تجاه الآخرين، بينما عاطفة الخوف هي عاطفة الإنسان تجاه ذاته[25]. وخوفنا نحن هنا من المآل الذي انتهى إليه البطل، إننا نسأل الله تعالى ـ إن كان فينا ثمة إيمان ـ أن لا تكون عاقبتنا عاقبة هذا الرجل الخائب الذي خاب تقديره، وضل سعيه، وتهافت الركن الذي ارتكن إليه من دون الله!!

وربما اكتنفنا شعور من السرور، لأننا نرى «إنساناً» يتعذب دون أن نتعذب معه، مع أننا ربما اتصفنا بنفس الصفات التي اتصف بها من أثرة

---

(24) الإسلام والفن، د. محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد إيران، ط1، 1409هـ، ص140.

(25) محاضرات في نظرية الأدب، د. شكري عزيز الماضي، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1984، ص32.

ونسيان وعتو، وقد يمر بنا شيء من العقاب ولكنه لم يصل إلى الدرجة التي وصل إليها (البطل).. ثم إننا سوف نشعر أن همومنا وكوارثنا محدودة إذا قيست بالكوارث والمصائب التي يمر بها الناس الآخرون[26].

كل هذه الانفعالات والعواطف تعترينا في هذا المشهد الرهيب، وقد يعترينا غيرها، حسب استعداد قلوبنا للعبرة والاتعاظ، وقد يتكاثف الرين على بعض القلوب فلا ترى شيئاً من هذا ولا تحس به، وكأن هذا الرين جعلها غليظة لا تحس بما تتمثله الظنون، حتى ترى ما تراه العيون وتحس به الأجساد!!

و ـ وقد ناقشنا هذه الصورة القرآنية في سياق الدلالة النفسية للتضاد في بحث سابق[27]. حيث وقفنا عند ملحظ ورود التضاد القرآني في سياق التصوير.. فقد كان التأكيد كثيراً على عنصر الغنى والثروة والرفاه والسعادة والقوة في بداية الحكاية وبعبارات موجزة جداً توحي بكل هذه الحالات النفسية، كما كان التأكيد كثيراً على عنصر العدم والتلاشي والخسارة والخيبة والألم والحسرة، في نهاية الحكاية، ليظهر من تضاد الألوان والحالات اقتناص الهدف المعنوي والتربوي الذي تسوقنا إليه الآية فتبلغ مداها في استثارتنا وتحريك أعصابنا لنستقر على فهم وأوبة إلى آدميتنا التي لا يعرف لها معنى إلا بربط مسارها في البداية والنهاية بمن صورها فأحسن صورها، وبمن زرعها في الأرض، وسوف ينقل ثمارها ـ على شتى ألوانها ـ إلى المستودع الأخير!!

وتتسع الحكاية التي شهدناها في آية واحدة إلى قصة كاملة توظف للهدف نفسه، كما هو الحال في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وقصة

---

(26) نفسه، ص33.

(27) البحث بعنوان (الطباق البياني في القرآن الكريم)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع15، 1998، ص86.

أصحاب الجنة في سورة القلم، حيث السياق واحد، غنى وترف وغرور ثم عدم وامحاق وخسران وندم وخيبة[28]. وحين نتملى مشاهد القصتين تضطرم فينا المشاعر والأحاسيس المختلفة بدرجة أوسع مما أحسسنا به في الآية السابقة.

وصورة الفرح الغامر والنهاية البئيسة نجدها في أكثر من موضع في القرآن، فهي توظف أساساً لجذب انتباهنا وشدنا إلى الهدف العقائدي أو التربوي المطلوب.

نجد هذا في صورة ذلك الظمآن الذي يتخايل له السراب ماءً وهو في أشد الحاجة واللهفة إليه، فيشعر بالفرح ويحث الخُطا يحدوه الأمل، ويذهب به خيال اللذة الحسية في الرّي والشبع من الماء البارد الزلال، حتى إذا ما وصل غاية خيالاته، وغاية جهده، وها هو يصل منتهى رغبته.. وجده سراباً حقاً، ووجده (لا شيء)، سوى خداع بالبصر، فكانت خيبته أعظم، وحسرته أفجع. تلك هي صورة أعمال الكافرين التي أراد الله ـ سبحانه ـ أن يقول لنا إنها لا تنتهي بأحسن مما انتهت إليه لهفة هذا الظمآن الخائب!!

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: 39]، واعتقد أن دعوته إلى التأثر بهذا المشهد منظور إليها في هذا الخطاب الإلهي غير المباشر لأننا نحن المستهدفون في النهاية.

كما نجد هذا التباين بين البداية والنهاية، البداية الطامعة والرفيهة والآنسة، وبين النهاية الحاسرة. والبائسة والحزينة، في نماذج أخرى مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: 17 و18] هذا هو (حال من جد في طلب النار ليتبين بها موضع قدمه، فلما حصل عليها انطفأت، وبقي كما كان قبلها في ظلمته وضلالته. المنافق وما في دواخله من قلق وحيرة واضطراب صار

(28) ينظر: كتابنا (الإعجاز القرآني، أسلوباً ومضموناً)، ص199، وستجد تحليلاً لقصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

مرئياً في هذه الصورة، صورة هذا الكائن في ليلٍ بهيم شديد الظلمة لا يدري ما يحيط به، ولا يأمن أن يكون قد كمنت حوله أهوال ماحقة، أو أن يضع يده في مهواة الضياع، ثم اجتهد في أن يحصل على ما يضيء له ما حوله، فلما أضاءت، وأذهبت بعض مخاوفه، واستشعر شيئاً من الأمن ذهبت النار، وعاد إلى حالته الأولى من الحيرة والضلال)[29].

أرأيت إلى عنصر الخوف والقلق والترقب ثم الغبطة والفرح، ثم الخوف والحيرة ثانية، ونحن ننظر بأمهات أعيُننا شامتين هذه المرة بهذا الكائن الذي يعبد الله على حرف، أو لا يعبده أساساً إلا رئاءً ومنفعة.

ونحن ناظرون إلى هذا التناقض بين أول المشهد ونهايته في صورة أولئك الذين ركبوا السفينة، وجرت بهم في ريح هانئة طيبة. وفرحوا برحلتهم وأمّلوا وصولهم أو أوبتهم إلى أهليهم وبلغ بهم الاطمئنان والأمان مبلغه المتناهي في نفوسهم، هبت عليهم ريح عاصفٌ ودمرتهم ودمّرت ما في مخيلاتهم من آمال وما في نفسوهم من أفراح معاً. وكان طبيعياً أن يعقب كل حالة مثل هذه ندم وإعلان توبة ورجاء وقد يكون ندماً حقيقياً وتوبة صادقة، وقد لا يكون، ولا تكون على اختلاف استعدادات النفوس وتلقيها للإنذار. وهذا هو المشهد بلفظه القرآني الأخّاذ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: 22].

وتلاحظ معي أن عنصري الخوف والأمل كائنان في هذه النماذج الثلاثة، على تفاوت في قوة أو درجة أحدهما في هذا النموذج أو ذاك، ولكن الحالة المشتركة بين هذه النماذج هي عنصر المفاجأة التي تدهم الفرح أو الخائف، فترد فرحه خيبة وخسراناً. وهو ما حدث للآمِل من السراب ماءً، وللمستوقد ناراً فإذا هي ذاهبة وهو عائد إلى ظلمته، وللجماعة الذين ركبوا سفينتهم مطمئنين وانتهوا إلى خوف ورعب كاملين..

وترانا إزاء هذه المشاهد مثل أولئك المصوَّرين، نفرح ونحزن، نقلق

---

(29) التصوير البياني، ص93.

ونطمئن، ونخاف ونرجو، ونشمت ونشفق. وهدف القرآن في هذا كله لا يقف عند بيان الحق في هذه المشاهد بل يريد أن يعمق مجراه في نفوسنا بذلك، وذلك حين يرسم لنا مشاهد من الصراع النفسي، أو مشاهد من حيوات بعض الناس الذين يهربون من الحق أو يحاربونه، أو ينافقون في التعامل معه.

ولا شك في أن الصورة القرآنية بدلالاتها النفسية توقظ فينا الانفعال، كما توقظ فينا قوة الإرادة، وتهيئنا للانتفاع مما نرى ونشاهد، وينهي الأمر بنا معها إلى تهذيب أخلاقنا واستواء سلوكنا. وهو أمر قد يتوفر مع كل أدب إنساني رفيع[30]. فما بالك بالأدب الإلٰهي المربي الموجه.

ثانياً: الإبهـاج والتعجيب

لقد استبد بنا الحديث عن التخويف والترعيب للنفس الإنسانية في الصورة القرآنية ضمن أهداف تربوية تقصد إلى ترويض هذه النفس العصيّة التي لا تلتفت إلى مآلها ونهايتها، ولا تعتبر بآيات ربها وبارئها. وهذا لا يعني أن الصورة القرآنية وقف على مثل هذا الهدف. فهناك صور أخرى فيها إغراء وفيها إبهاج وفيها وعد جميل. ومنها هذه الآية التي تصف الجنة وما فيها من أنهار من لبن وأنهار من عسل، وأنهار من خمر.. بل فيها من كل الثمرات، وفيها فوق هذا كله مغفرة ورضوان من الله. وهو شيء عظيم عند النفوس المُخْبِتَة ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: 15].

أية بهجة آسرة يلقيها هذا الحشد الجميل الغامر من العطاء، فهو أنهار وليس نهراً، وأنهار من أشياء عزيزة حلوة: ماء ولبن وخمر وعسل وثمرات أخرى شهية حلوة.. إن حواس الذوق لدى الإنسان لتتحرك وهي تستحضر مشهد هذه اللذائذ مجتمعة في مكان. ولا أظن النفوس الراغبة في هذه (العروس) إلا أن تكون مستعدة إلى دفع الثمن الغالي؛ الإيمان والطاعة والبذل

---

(30) ينظر، أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط9، 1992، ص25.

بكل أنواعه من المال والكلمة والجهاد. . . فمثلما كان العطاء منوّعاً يجب أن يكون البذل منوعاً كذلك.

ومثل هذا الإبهاج نجده في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 24].

إن إلقاء الضوء على هذا الجانب من الصورة، جانب الشجرة الطيبة العظيمة التي تتطاول أغصانها إلى عنان السماء وهي مثمرة على الدوام، وهي تقف قوية تضرب بجذورها في أعماق الأرض، تهزأ بكل عاصفة أو عدوان، على خلاف شجرة الشر التي قد تبدو بهيجة ولكنها دونما جذور، وستذهب أدراج أيِّ ريح عاصف!!

مثل هذا الضوء يعود على الكلمة الطيبة التي تبني وتُنشىء الخير، وتُعبّد النفوس لربها، وتُعلّم وتُعمّر حضارة على الأرض. ونفوسنا يدخلها الإغراء للبحث عن المناسبة والجو الذي نقول فيه مثل هذه الكلمة؛ لأن التعبير القرآني صاغ هذا الوصف من خلال التصوير والتمثيل، (فإن من التمثيل البياني في القرآن ما يقرب الحقائق إلى الإذهان، ويضفي عليها لوناً من البيان فيجليها، وما ابتدع التمثيل لرسم الأشكال والألوان فقط، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس)[31].

إن هذا الإبهاج النفسي يتخذ من الطبيعة وعناصرها ومشاهدها وألوانها وسيلة للتأثير في النفس الإنسانية، حتى ليكاد أن يكون إطراداً في التصوير القرآني، حيث توظف مظاهر الكون الحسية من شجر وجبال وأنهار وبحار لتصوير أحوال النفس ومنازعها من قوة وضعف، وبقاء وزوال، وظهور وخفاء، وصدق وزيف، وربما أصبحت هذه المظاهر الطبيعية معادلات لأفكار أو حالات نفسية، أو قل رموزاً لها.

ألم يكن من بين مقاصد القرآن إدخال السرور على نفوس الفئة الصالحة

---

(31) سيكولوجية القصة في القرآن، ص246.

من البشر من خلال الوعد الصادق بالعطاء الغامر، بل إن الآيات القرآنية تصور مشاهد مبهجة عامة غير خاصة بالمؤمنين. فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6] تعبير عن حقيقة عامة في النفس الإنسانية، وهي تستقبل مشهد الإبل أو الماشية وهي تسرح أو تعود في المساء ممتلئة وفي أسراب راضية، وهذا يبدو أكمل فرحاً في نفوس المالكين لهذه الثروة الجميلة.

ثالثاً: التكريه والتنفير

وبعد هذه الوقفة مع عنصر الإبهاج في الصورة القرآنية وأثره في المشاعر البشرية، نلمّح إلى عنصر آخر قريب المساس بهذه المشاعر، ألا وهو عنصر التنفير من بعض النماذج الإنسانية أو تقبيحها من خلال قرنها بعناصر ذات شأن حقير من مثل الكلب والحمار والخنزير والذباب والعنكبوت والبعوض أو الشيطان ذي الصورة المكروهة في النفس البشرية.

فحين يتحدث القرآن الكريم عن (بلعم بن باعوراء) أحد علماء بني إسرائيل الذي آتاه الله علم بعض كتبه فانسلخ منها، وكفر بها، ولزم حالة الضلال بعد ذلك، ولم ينفع معه وعظ. وكان يمكن تشبيه حاله بحال شيء آخر ثابت لا يتغير عن وضعه، وما أكثر الأشياء التي تلازم حالة واحدة في الطبيعة الجامدة والمتحركة، ولكن حالته شبهت بالكلب، فقال الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 176]. أي (إنْ وعظته، فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث)[32]؛ لأنه أراد الإشارة إلى صفة الخسة والضعة فقرنه بالكلب في أخس أحواله وأذلها. وهذا الاقتران تسرع الأنفس في الاستجابة إلى هدفيته، فنحن نرتاح للأشياء التي تقرن أو تجاور الأشياء المحببة إلى نفوسنا، وننفر من الأشياء التي تقرن بما نكره[33]. وقد أشار علم النفس إلى هذه الحالة، وتحدث

(32) الكشاف، جـ1، ص588.

(33) ينظر بحثنا الموسوم بـ (إيحاء السياق في القرآن الكريم) المنشور بمجلة جامعة سبها، العدد الأول، 1994، ص9.

عن الإيحاء وتداعي المعاني إذا ذكرت بعض الأسماء أو الأشياء التي لها دلالات خاصة في النفوس، وربما ارتبط هذا بنظرية الانعكاس الشرطي التي أشار إليها العالم الروسي (بافلوف)[34]، وسوف نشير إلى هذا في مفردة تالية من البحث.

وقل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة: 5].

إن مجرد ذكر (الحمار) يجعل معاني البلادة وبطء الفهم والذلّة تتداعى إلى الذهن بسرعة. وإلى هذا المعنى أشار الشاعر العربي القديم:

لا يستنيم إلى ضيمٍ يُرادُ به إلاّ الأَذلاّنِ عِيْرُ الحيّ والوتدُ

وعير الحي، هو الحمار، والوتد مثله لا يرد بشيء على من يضرب على رأسه بالحجر حتى يُدخله الأرض. وبنو إسرائيل هؤلاء لا ينتفعون بالكتب السماوية التي أرسلت لهدايتهم مثلهم مثل الحمار الذي لو حمل كل أسفار العلم النافعة على ظهره، فإنه غير مهيأ للانتفاع بها. هذه سجيّة فيه، وهي سجيّة بني إسرائيل كذلك!!

وقد صار هذا (بئس مثل)، لأنه اقترن بالحمار البليد الذليل. والذلة صفة أخرى لبني إسرائيل الذين قال عنهم القرآن: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 96].

هكذا (حياة) بالتنكير، أيُّ حياة سواءً كانت عزيزة أو ذليلة والمهم أن يعيش!!

وهؤلاء القوم هم الذين قال عنهم القرآن كذلك: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: 60] هؤلاء الذين قُرنوا بالكلاب والحمر والقردة والخنازير، وهي ما هي في الدلالة على الخسة والبلادة والحقارة والنجاسة، ولِعظةٍ ما يستذلون أمة من الإسلام كاملة، وليس بعيداً أن تكون هذه

(34) ينظر، أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، ص.

العظة أن هذه الأمة قد قدمت استقالتها من الريادة الحضارية، فحق لها أن تستذل من أذلّ أمة، قرنها ربها بالكلاب والحمر والقردة والخنازير.. بكل ما لهذه الأسماء من إيحاءات واقترانات في النفس الإنسانية.

وقد مر علينا في الصفحات السابقة من البحث الإشارة إلى الشيطان ودلالته النفسية، ونريد أن نذكر به هنا ليكون في سياقه الخاص حيث يكون له وظيفته التنفيرية، فقد نفر القرآن بذكره من شجرة الزقوم التي تطلع في أسفل الجحيم، كما نفّر بذكره حين جعل المرابي وكأنه يصاب بمس من الجنون الذي تفعله الجن والشياطين بصرعاها، كما قرنه بذلك الضال الذي استهوته الشياطين تبعده عن أصحاب الخير والصلاح، وها هو يقرنه ببلعم بن باعوراء الذي (أَتبعَهُ الشيطان فكان من الغاوين)[35].

وكما أن الله ـ سبحانه ـ يضرب الأمثال للأمور العظيمة بما يناسبها من العظمة والجلال، فهو يضرب الأمثال للأمور الحقيرة بما يناسبها من الحقارة. فها هو ـ جل شأنه ـ جعل الذباب والعناكب والبعوض مثلاً للآلهة الضعيفة الواهنة الحقيرة التي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، أو تحميها، أو تستنقذ ما يؤخذ منها[36].

وما من شك في أن العلاقة بين هذه المشبهات والأمثال علاقة نفسية تستجيب لها النفس فتميل إلى التأثر والتصديق، وتمنح المشبه ما اتصف به المشبه به، وهو المطلوب من سياق المثل أو المشبه به[37]. ومن المعلوم أن علماء البلاغة تحدثوا عن أغراض التشبيه، وكان واحداً من هذه الأغراض هو: التقبيح. ولهذا الغرض أصوله النفسية دون خلاف. وكانت الأمثال القرآنية في هذا المجال قد أصابت هدفها، وبلغت ذروتها في التأثير واستجاشة الإحساس الإنساني. ولقد قيل بأن (في ضرب الأمثال [تبكيتاً] للخصم الشديد الخصومة،

---

(35) تراجع الآيات، الصافات: 26، البقرة: 275، الأنعام: 71، الأعراف: 176.

(36) تراجع الآيات: الحج: 37، العنكبوت: 26، البقرة: .

(37) المعاني الثانية، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1991، ص428.

و[قمعاً] لسورة الجامح الأبي، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه من الأمثال)[38].

رابعاً: النمطية والتكرار

المواضع التي أشرنا إليها من الصور القرآنية بدلالاتها النفسية التي وقفنا عندها تتكرر في أكثر من نموذج، ولكننا اكتفينا بالإشارة إلى جزء منها لضيق مساحة البحث. فهل هناك من دلالات نفسية لهذا التكرار؟

الحق أن التكرار بشكل عام يؤتى به لتحقيق أهداف نفسية في الأساس، وهذا ما نجد أمثلة منه كثيرة في الأدب الإنساني. علماً بأن القرآن لا يكرر الصورة بالألفاظ ذاتها، ولكن يجري عليها تحويرات من التقديم والتأخير والحذف والإضافة، ويضعها في كل مرة في سياق مغاير للسياق الآخر. وهذا مبحث طريف يُعنى بالأسباب المعنوية أو النفسية (فيما يتعلق بالمتلقي طبعاً)، التي جعلت التعبير أو التصوير يتغير من موضع إلى الآخر، وقد عني به علماء قدامى كُثار[39].

ولنضرب مثلاً لهذا التكرار في التصوير ودلالته النفسية بهذه النماذج القرآنية الثلاثة:

1 ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

2 ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

(38) الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين الصغير، دار الهادي، بيروت، ط1، 1412هـ، 1992م، 388، والكشاف، جـ1، ص203.

(39) من مثل الخطيب الإسكافي في (درة التنزيل وغرة التأويل)، والنيسابوري في (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وأحمد بن إبراهيم الغرناطي في (ملاك التأويل) وغيرهم.

أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: 24].

3 ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: 45].

بدءاً فإن هذه الصور ليست متشابهة تماماً في ألفاظها، وفيها تفصيل في جانب وإيجاز في جانب آخر، فلا يمكن أن يكون المعنى أو المضمون واحداً، كما لا يمكن أن تكون الدلالة النفسية للصور جميعها واحدة، خاصة إذا عرفنا الحقيقة الدلالية للألفاظ، ووقفنا عند فكرة (زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى)، واختلاف التعبير يومىء إلى معنى جديد ويحقق هدفاً نفسياً جديداً.

والمتأمل في هذه الآيات والسياقات التي جاءت فيها يلاحظ أن الآية الأولى جاءت بعد الحديث عن النعيم الذي يرغد فيه الشهداء في الجنة، فكان التفصيل فيها عن نعم الدنيا للمقارنة بين هذه النعم الزائلة، وتلك النعم الدائمة. وشتان بين النعمتين!!

أما الآية الثانية فجاءت بعد قصة قصيرة، أو حكاية لها بداية ونهاية تمثلها آية واحدة ـ وذلك من روائع الإيجاز في القرآن ـ لتقارن بين النهاية التي انتهى إليها الذين فرحوا بركوب سفينتهم وبالريح الطيبة الهادئة التي ساقتهم، وهي نهاية واحدة حيث الفقد والعدم والخسران.

وجاءت الآية الثالثة بعد قصة صاحب الجنتين الذي كان في غاية غروره وجحوده واستعلائه على صاحبه الفقير، لتشير إلى سرعة زوال النعمة مع الجحود والكفران. وقد اختصرت الآية ـ بشكل عجيب ـ هذه الحياة الطويلة العريضة مراحلها ومظاهرها بما يقرب من سطر واحد.. نبات ينمو، ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح!! هكذا وبدون تفصيل لأيٍّ من مباهج الحياة التي تحدثت عنها الآيتان السابقتان، فكان الإيجاز، لمشهد جدٍّ موجز!!

وكانت هذه الصور الثلاث في صياغتها، منظوراً إليها من حيث قدرتها على إثارة المشاعر، والإلفات إلى مواضع الاعتبار. وهو هدف ملازم للصورة القرآنية كما لاحظنا. ولا حاجة إلى الإشارة إلى أن الأدب البشري القاصر قد

يصيب أحياناً في تحقيق الهدف النفسي، وقد لا يصيب، وربما ارتدَّ مخفقاً في بعض الأحيان. ولسنا معنيين في هذا الموضع أن نمثل لهذه النماذج البشرية المخفقة في تحقيق الدلالة النفسية المطلوبة.

وبغض النظر عن الاختلاف في صيغ التعبير في تحقيق دلالات معنوية ونفسية خاصة، يمكن التساؤل عن سر هذه التكرار لفكرة حب الحياة لدى البشر، أو فكرة بهارجها وسرعة زوال هذه البهارج ولا أعتقد أننا نذهب بعيداً إذا قلنا إن حب الحياة فطرة راسخة في النفس الإنسانية، ولعله أساس المصائب والانحرافات التي يشتط بها البشر في كثير من الأحيان. والنماذج البشرية التي تبلغ الغُلو والطغيان كثيرة مصورة في القرآن مثل النمرود وفرعون وقارون، وبلعم بن باعوراء!! وغيرهم.. وقد أراد القرآن ـ والله أعلم بمراده ـ أن يلقي الضوء على هذه النسبة العالية التي يعطيها الإنسان من الاهتمام بالحياة والخلود إليها، والالتصاق بأرضها وبكل ما يتعلق بها من ماديات، لإلفاته إلى هذا الخلل في التوجه، وإلى هذه (القسمة الضيزى) في الموازنة بين الدنيا والآخرة، في حين أن منطق الاهتمام القرآني هو العكس، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث جعل بؤرة الاهتمام هي الآخرة، ومس الدنيا مسّاً خفيفاً (ولا تنسَ نصيبك من الدنيا)!!

إن هذا التكرار هدفه أن يولد لدينا تياراً فكرياً عاطفياً إزاء ما بعد هذه الحياة، ويشحن قلوبنا بحب الآخرة، ويقلل (شغفنا) بالدنيا على حساب الآخرة الخالدة. يقول علماء النفس: (إنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكري عاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات، وهو العدوى، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك أن يتكرر حدوثه)[40].

ومن المعلوم أن العمليات العقلية والمشاعر الإنسانية إزاء الأشياء والأفكار تتم عبر مراحل من الانتباه الذي هو تركيز الشعور في شيء، ثم الإدراك الذي هو

(40) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي نقرة، ص116.

معرفة ذلك الشيء، ثم الانفعال بالشيء، تم تكوين عاطفة ثابتة نحو ذلك الشيء. فالانفعال حالة تتكرر لتكون العاطفة التي هي مركب من عدة انفعالات تدور حول موضوع واحد. ولهذا يكون الحب والكره من العواطف التي ترسخت من خلال انفعالات متكررة نحو شيء أو فكرة أو شخص من الأشخاص[41].

وقد مرّ علينا أن التكرار في التعامل مع الأشياء أو الأفكار أو الأشخاص أو الألوان أو الأطعمة يولد ما سماه علماء النفس بـ (الانعكاس الشرطي)، إذ كلما تكررت الإشارة إلى ذلك (المنبه) تداعى كل ما يتعلق به من صفات في النفس، ويتم استحضار هذه الصفات والتعامل معها بما يسمى بحالة الاستجابة للمنبه[42].

خامساً: خلاصة في الطوابع العامة

والملاحظ أن الصورة القرآنية من حيث قدرتها على التأثير النفسي أنها حسية الطابع، أي أنها تقرّب المعنويات من خلال المظاهر المادية في الوجود. فإن كان هناك أنواع من التشبيه ـ وهو أحدُ وسائل التصوير ـ من مثل تشبيه المادي بالمادي، أو المعنوي بالمعنوي، أو المادي بالمعنوي أو المعنوي بالمادي فإنّ هذا النوع الأخير، هو النوع الأثير والمفضل في التصوير القرآني[43].

---

(41) أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح، ص146.

(42) كنت كلما نظرت إلى حقل تتفتح فيه شقائق النعمان الحمراء في الحقول الجزائرية، وتغطي سائر الألوان من النباتات، استحضرت الصورة القرآنية عن مراحل الحياة، وسرعة زوال هذه الألوان كلها، لتصبح صفراء، أو هشيماً تذروه الرياح!! إن ذلك المشهد يلخص لي حياتي كلها في نظرة واحدة!!

(43) ينظر لإيضاح هذا المصادر التالية:

1 ـ البلاغة بين الفن والتاريخ، د. فتحي أحمد عامر، ص90.

2 ـ علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص70.

3 ـ الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، ص396.

وكلها تشير إلى ما لاحظه العلماء القدامى من مثل علي بن عيسى الرماني، وعبد القاهر الجرجاني، وضياء الدين بن الأثير.

وفي هذا الطابع ما فيه من تأثير نفسي لأن (أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم. . .) كما قال عبد القاهر الجرجاني[44].

ثم إن النمط الغالب من هذه المحسوسات التي يقرب بها القرآن معانيه هو حاسة البصر، لأن للمشاهدة أثرها في تحريك النفس وتمكين المعنى من قالب، ولقد قيل (إن عقولنا تعتمد على الرؤية كثيراً، لأن انطباعات النظر تثبت. فنحن نستطيع في معظم الأحيان أن نتذكر وجه الشخص عند عجزنا عن تذكر اسمه. إن الأعصاب التي توصل بين العين والمخ أكبر من تلك التي توصل بين الأذن والمخ)[45]. وواضح في حياتنا التعليمية أننا نعتمد على الوسائل البصرية أكثر من اعتمادنا على سواها، لما في ذلك من صلة من تعلق النفس بماترى، وبسرعة انطباع الصورة التي ترى في الذهن، ودوام رسوخها فيه.

وإذا كان ثمة منطق واستدلال وطابع من العقل في الصورة القرآنية، فإنه منطق يمكن أن نصفه بالمنطق الوجداني، أي أنه منطق قريب من النفس، وليس شبيهاً بذلك المنطق الفلسفي الجاف. وفي هذا سر خلود الصورة القرآنية وقوة تأثيرها. تجد هذا في الصور التي مثلنا لها أو في غيرها من الصور المبثوثة في القرآن.

ثم إن في هذه الصور تدهيش وتعجيب وغرابة في بعض الأحيان، ولكنها غرابة تقترب من المنطق الوجداني الذي أشرنا إليه. ومن المعلوم أن الأجواء التي يخلقها هذا التعجيب ذات تأثير واستجاشة قوية للنفس الإنسانية.

وأخيراً يمكن القول بأن الأدوات التصويرية التي يوظفها القرآن في تبليغ معانيه لا تخلو جميعها من دلالة نفسية تعمل عملها في الكيان الإنساني وتهزه

---

(44) أسرار البلاغة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، د.ط، 1397هـ، 1977، القاهرة، ص115.

(45) سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نقرة، ص64.

من الأعماق وتؤثر في سلوكه وخلقه. فالتشبيه والتمثيل والتشخيص والكناية والمجاز عموماً، تتحقق فيها هذه الدلالة لأنها صيغت من أجل أن تبلغ هدفها. كما أن المبالغة في الصورة، أو الإيجاز فيها، أو التفصيل والاستطراد أو التفريع والتوليد في بعض الصور، جاء لتحقيق أغراض ودلالات نفسية معينة كذلك.